ترجمة فيكتور هوكو

لجناب ديمتري افندي خلاط

هو الفيلسوف المستغني اسمهُ عن التعريف المشهور بحسن التأليف والتصنيف الشاعر المفلق المجيد والكاتب الناقد السديد الداعي الامم الى الوفاق الراوية الباصر في البؤْس بعين الاشفاق انسان عين الذكاء ودرّة عقد البلغاء وشمس دراري الشعراء النحرير الخطير فيكتور هوكو الشهير.

ولد من عائلة كريمة معروفة في مدينة بزانسون من اعمال فرنسا في ٢٦ شباط سنة ١٨٠٢ وانتقل منها الى ايطاليا مع عائلتهِ قبل ان بلغ الفطام فدبَّ ودرَج وترعرع في ايطاليا فأثرت نقاوة سمائها ورقة مائها في بنيتهِ القوية ونيّرتهِ الغريزية فكانت النتيجة توقد خاطر لا تخبو نارهُ ومضاء عزم لا تفلُّ شفارهُ ورقة قلبٍ تسيل لطفًا ولين جانب يذوب ظرفًا. واقام في ايطاليا حيثما كان ابوهُ عاملًا من قِبَل بونابرت على ولاية اڤلينو حتى سنة ١٨٠٩ حينما بعث بهِ والدهُ الى باريز ليتخرّج في العلوم بمدرسة النوليانتز تحت نظارة الموسيو لاهوري

وفي سنة ١٨١١ قادت اباهُ ظروف الحال ودار بهِ منجنون السياسة الى الذهاب الى اسبانيا

فاصطحب ابنهُ معهُ ووضعهُ في مدرسة الاشراف بمدريد فاستفاد ما استطاع وعاد سنة ١٨١٢ الى مدرستهِ الاولى وترقّى منها الى مدرسة الصنائع والفنون اثناء منفى بونابرت الى جزيرة البا . وكانت افكار الفرنسويين في تلك الغضون مختلفة الآراء السياسية فكان بعضهم يتمنى عود الملكية وآخرون تأييد الجمهورية وغيرهم تثبيت دعائم الامبراطورية وكانت الحكومة متيقظة لكلام النبهاء والخطباء والكتاب مستهدفة لمرامي الاحزاب فنبي اليها كلام لاحد اساتذتهِ مشوّهًا محرّفًا مجحفًا بدعواها ناقضًا لمبناها فالقت القبض عليهِ وطرحتهُ في السجن فأثر ذلك الجور في مخيلتهِ وأمالهُ لين القلب الى الجانب الضعيف شأن الطبع الانساني فتشرَّب بالمبدإ الملكي وساغ لهُ وِردهُ

وفي سنة ١٨١٦ صنَّف ترجادية "ارتامين" وهو في الرابعة عشرة ونظم اشعارًا انبأ بها هلال نظمهِ عن بدرهِ التالي ودلَّ مكين نسجها عن سعرها الغالي وجلا بديع لفظها عن صوغها الحالي فتفاءل معارفهُ منهُ خيرًا واسدوا لهُ شكرًا وقالوا هذا ممن لم يبلغ اشدَّهُ فكيف بهِ اذا بلغ حدَّهُ . وفي سنة ١٨١٧ اقترحت الجمعية العلمية على الشعراء قصيدة مبينة فوائد الدرس باوجز مبنى واجزل معنى فتجارى الكتبة في ذلك المضمار ونظم فيكتور قصيدة حاز بها قصب السبق

وفي العام العشرين من سنهِ ابرز الى الوجود ما ابتدعتهُ قريحتهُ من الاشعار في كتاب مجموع وسمهُ "بالقصائد والاغاني" نهج فيهِ منهاجًا غدا الشعر الحديث سراجًا فانهُ لم يقصد بشعرهِ المدح والهجاء ولا النسيب والرثاء ولا ترتَّب المحامد والمثالب على صلة الحكيّ عنهُ فان اجزلها عليهِ اجلَّهُ وان اقلَّها ثلبهُ فالشعر اعزُّ من ان ينحط الى هذه الرتبة وارفع من ان ينتسب هذه النسبة فهو ريحان النفوس لا يباع ولا يشترى وابن القريحة لا يؤجر ولا يكترى. فان داخلتهُ الرشوة فسد وفسدت اخلاق قارئيهِ لذمهِ الممدوح ومدحهِ المذموم ولتأثير وقعهِ في النفوس فبئس العقبى . ولقد ذهب فيكتور في شعرهِ مذهب ابن سينا وابي العلاء باستخدامهِ الشعر قالبًا لافراغ حرية افكارهِ وفلسفة ارائهِ وتخيلاتهِ ومذهب هوميرس في وصف الوقائع والمعامع والتشبب بالمجد الوطني فكأنهُ سمع قول معاوية لعبد الرحمن بن الحكم "يا ابن اخي انك شُهرت بالشعر فاياك والتشبب بالنساء فانك تعيّر الشريفة في قومها والعفيفة في نفسها والهجاء فانك لا تعدو ان تعادي كريمًا او تستثير بهِ لئيمًا ولكن افخر بمآثر قومك وقل من الاراء ما توقر بهِ نفسك ومن الامثال ما تؤدب بهِ غيرك. او كأنهُ اقتفى اثر زهير ابن سلمى في قولهِ

وان اشعرَ بيتٍ انتَ قائلهُ بيتٌ يقالُ اذا انشدتَهُ صدقا

وهذا ما جعل شعرهُ رقيقًا منسجمًا لانهُ نفثات النفس الحرة غير مضغوط عليهِ بجور الاستبداد لينعنف ولا متقيد بطلب الصلة ليتكلف

فاقبل القراء على ورد شعره الصادر من نبع صافٍ وساغ لهم زلالهُ وحوّمت طيور الاذهان على سنابل زرع افكاره لتلتقط بها غذاء الادب فطارت شهرتهُ وعلت مكانتهُ ومالت عائلة فوشير المكرمة الى مصاهرته بعد ان صدّتهُ لصفر يديه فتزوج سنة ١٨٢٢ بفتاة فوشير حبيبته التي احبها منذ الادراك

وشفَّ بعض قصائده عن ميله الى الحزب الملكي فمال اليه شاتوبريان الكاتب الشهير والوزير الخطير وقرَّبهُ من الملك لويس الثامن عشر فاكرم مثواهُ ووالاهُ بآلائه بغية استمرار عضده الادبي للآراء الملكية الاّ ان فكتور ابيُّ النفس لا يبيع اعزَّ متاع يملكهُ — الفكر الحر — بالدرهم ووطني النزعة لا يخون وطنهُ لمنفعة خاصة فلما رأى ما طرأ على الملكية من الفساد والاختلال وكيف اماطت النقابَ عن عيوب محيّاها حوادثُ الحال قنط منها وجرى مع الراي العام بالصدود عنها. وسنة ١٨٢٧ نشر قصيدتهُ الغراء المساة "كرمول" ومهّد لها توطئة جمعت فأوعتْ وأورت فأرت معنًى دقيقًا ومبنًى رقيقًا ونزع منزعهُ الجديد في رواية ارناني التي عرضت للتمثيل سنة ١٨٢٨ فبلغ بها من الفوز شأوهُ الاقصى ووقعت لدى الآذان موقع الاستحسان وكان موضوعها ادبيًا ومحمولها سياسيًا ضمنها بيان مزية الحرية والضرر الناشئ من خلل الملكية وسوء عقبى بقائها على تلك الكيفية

ونجاح الفرد يثير في قلوب العذّال راقد الحسد ويبعث في صدور اللؤماء دفين الحقد فسعت حسّادهُ به الى آل الملك وبطانته مظهرين ما في زوايا ارناني من الخبايا متربصين به ريب المنون لكن الحكومة ادارت لهم صمّ الآذان فابكمتهم وذهبت مساعيهم ادراج الرياح. ودعاهُ الملك شارل العاشر خلاف المنتظر منهُ ورفع مكانتهُ وزاد راتبهُ المعيّن من ثلاثة الى ستة آلاف فرنك فأبى قبول الزيادة حتى لا تضطرهُ منّة الملك الى التزام جانب السكوت فيحرم من خدمة الوطن. وربما رغب الملك في زيادة راتبه خوفًا من يراعه وتوقيًا من سعير شعره فقصد ان يطفيء توقّد فكره بغمر النعمة حتى لا يمتد لسان اللهيب فتحترق الملكية وتسقط تحت ردمها

وسنة ١٨٣٠ اختمر عصير الهياج في باريز وانتشت به ادمغة اهليها فهاجت سوْرة الحمية فيهم فاندفعوا على الملكية البوربونية فزعزعوا بنيانها المتقلقل وكان فيكتور ممّن اندفع مع تيّار الثورة بل ممّن اهاج عواصفها. وبعد سكون الحركة وخمود الهياج عكف على نظم القصائد الرنانة في وصف معامع بونابرت متشببًا متفاخرًا فما اليقهُ قابضًا لتلك الفرائد وما اجدرهُ صائغًا اياها قلائد

وسنة ١٨٤١ ترشّح لعضوية المجمع العلمي (الاكادمية) فرجحت كفتهُ عن كفة مناظريه ووقع

سهم الاختيار عليهِ فانتظم في سلكهِ وكان براعة استهلالهِ خطابًا القاهُ على رصفائهِ تناظر بهِ الادب والسياسة فجمع الحسنين

وكان مناظرًا للامارتين الشاعر الشهير في جودة النظم وشهرة الاسم وحسن الوصف والرسم وكان لامارتين اشهر اهل زمانهِ وقد اصدر وقتئذٍ مجموعة من المنظومات وسمها "بالفكر" جاء فيها بابلغ ما يجيء بهِ الواصف وابدع ما تلدهُ القرائح فحصل الزحام عليها لكثرة طلابها — والمنهل العذب كثير الزحام . فغار فيكتور من نجاح لامارتين والغيرة ام الجد والاجتهاد وكان وقتئذٍ حزينًا على فقد ابنتهِ وصهرهِ فنظم قصائد وافرة وسمها بالتأملات (وقيل انها لم تنشر قبل سنة ١٨٥٦) عارض بها لامارتين فبرزت مسبوكة في احسن قالب من الظرف والادب ونال بها غاية الارب ولا سيما لانها اعربت عن صدورها من فؤاد مكلوم بسهم الجوى وخاطر محروق بنار النوى واحسن البيان ما امتزجت بهِ لواعج النفس مع تصورات العقل فما اصدق جواب الاعرابي للاصمعي اذ سألهُ "ما بال المراثي اشرف اشعاركم فاجابهُ لاننا نقولها وقلوبنا محترقة"

وسنة ١٨٤٤ اخذ بالتداخل في السياسة العملية اجابةً لسؤال اصدقائهِ الكثيرين الذين كانوا يحثونهُ على الولوج في هذا الباب راجين خيرًا لوطنهم من نتاج مشربهِ الحر وطويتهِ السليمة فانتخب عضوًا لمجلس النبلاء سنة ١٨٤٥ وما رغب في السياسة حبًّا بالسلطة بل خدمةً للانسانية كما تشفُّ عن ذلك خطبهُ الرنانة التي استخدم بها كل قواهُ العقلية لاقناع الحكومة بابطال عقاب الموت ومنع زيادة الضرائب واباءة قبول البدل العسكري

ولما كان المقصود من ثورة شباط خلع لويس فيليب واقامة الجمهورية خاف فكتور من انتضاض الثورة الى النوض فتسوّ العتبى ومع بعد صيتهِ في الحرية وحبهِ لمبادئ الثورة وتحريكهِ الخواطر اليها كان يتوجّس منها ضررًا اذا آل امرها الى الرعاع فكان رأيهُ من هذا القبيل كرأي الافوه الازديّ القائل .

لا يصلح الناس فوضى لا سراةَ لهم ولا سراة اذا جهّالهم سادوا

فكانت سياستهُ في الثورة بين بين يدافع عن مبادئها ويهيج الخواطر ضدّ من حكم بالقتل على الآخذين باسبابها ويسكّن ما حمي وغلى من الافكار بتدفّق الراي الصائب عليها وظلّ هكذا مع لامارتين وتيوفيل كوتيه وكثيرين من كتبة ذلك الحين حتى انقلب لويس فيليب وانتصب لواء الجمهورية سنة ١٨٤٨

ومن المعلوم الغني عن البيان كيف سعى نابوليون الثالث حتى توصل الى ركون الامة الفرنساوية وكيف آلى على نفسهِ واقسم جهارًا على ولاء الجمهورية ورفع منارها وتثبيت اقدامها حتى امن اليهِ

اعوانها وانصارها . ولما كان نُهى فيكتور مشربًا من فتوحات نابوليون الاول مفتونًا بسحر تلك الوقائع كان من جملة المصدقين لنابوليون الثالث فلم يرعهُ ترقيهِ الى زعامة الجمهورية . ولما آكتملت معدّات الظفر لنابوليون وقبض على اعنّة الحكومة الاجرائية اماط السجف عن الابصار ونادى بالامبراطورية ونكب بالجمهورية واعوانها والحرية واخواتها وكان نصيب فيكتور المنفى مع عائلتهِ الى جزيرة جرسي فندم على ما فات من ثقتهِ بنابوليون ولاتَ ساعة مندم وبات في منفاهُ يحرّق الارم كمدًا ويتميّز غيظًا من نكث نابوليون وحنثهِ ونشر كراريس واعلانات يهيج بها خواطر الجيش الوطني للذود عن الحرية واهلها المنفيين واعقب تلك الاعلانات بكتاب عنوانهُ "نابوليون الصغير" واردفهُ بآخر سماهُ "العقاب" وحصل عليهما رواج واي رواج

ولبث يتقلب في المنفى الى سنة ١٨٧٠ وألف في خلال هذه المدة كتبًا كثيرة منها روايتهُ الشهيرة المسماة "بالمنكودين" وهي درّة يتيمة وجوهرة كريمة واسطة عقد كتاباتهِ وشامة صفحات رواياتهِ ابان فيها قصور الاجتماع الانساني ومعايب الهيئة الحاضرة فلخصنا معنًى من معانيها بهذه الابيات

كم في عقودِ اجتماعِ الناسِ من خللٍ ... في سجفِ قانونِ عدلٍ ظلّ ساترَها
لكن اذا أمعنَ الفكرُ الدقيقُ بها ... زال الحجابُ واضحى العقلُ حاسرَها
يرى العقودَ عيونًا مجّ مشربها ... والوهمَ موردَها والجهلَ صادرَها
ألا ترى البائس المسكين قد وهنت ... منهُ القوى والحشا قد بات ضامرَها
يبيت يحيي الليالي طاويًا قلقًا ... مستنشقًا من مطاهي القوم عاطرَها
والخبز في السوق معروض وقد كسدت ... رُغفانهُ وعلا التعنين ظاهرَها
وَجِبْلَةُ الجسم تدعوهُ لتجديها ... والنفس امّارةٌ بالسوء ناكرَها
وللضرورة مهمازٌ يحرّضهُ ... حتى اذا أرختِ الظلما غدائرَها
دنا لحانوت خبّاز وشدّ بها ... مُعَطِّلَ القفل والخُشبانَ كاسرها
فنال يحيي رغيفًا منعشًا رمقًا ... فنال قبضة من قد كان خافرها
تكأكأ الحرسُ العاتي واوثقهُ ... وسامهُ من ضروب الذل وافرها
وأصدرَ الحكم في ليمانهِ فُنفي ... مُعانيًا من مساوي الصنع جائرها
ابن العدالة في اوهام سنتكم ... تصدرون من الآثام آخرها
ومن يجرّ جيوشًا قاتلاً بشرًا ... ينَلْ جزاءه من الالقاب فاخرها

ونشرت هذه الرواية سنة ١٨٦٢ بثماني لغات في آن واحد وانتثرت فرائدها في باريز

وبروسل ولندن ونيويورك وبرلين وبطرسبرج ومدريد وتورينو وبيعت الطبعة الاولى منها بثلاث مئة الف فرنك

والّف بعدها مفردات كثيرة ولبث نازحًا عن الاوطان بعيدًا عن الخلاّن حتى سنة ١٨٧١ لما دُكَّ صرح الامبراطورية وارتفع لواء الجمهورية فآب مع غيره من المنفيين وافرغ كنانة ذكائهِ للتحريض على الذود عن الوطن بمناشير كانت تعلق على جدران باريز. وبعد انطفاء لظى الحرب واستتباب الامن والسكينة في البلاد انتخب عضوًا لمجلس النواب ثم لمجلس الشيوخ سنة ١٨٧٦ وعاد الى مقامهِ في الاكادمية يزفّ عرائس افكارهِ في كتبهِ وخطبهِ ويكلل هام شيخوختهِ برفع منار الفضل والفضيلة ولبث عائشًا بارغد حال وانعم بال الى ان اكمل الثمانين من عمرهِ سنة ١٨٨٢ فنطنت الامة الفرنساوية الى تكريم الذكاء والفضل بهِ فدار بهِ عشّاقهُ في ازقة باريز يحملونهُ على الاكتاف ويحتفلون بهِ احتفالاً ما سبق لهُ مثيل سوى لفولتير من العلماء. وكانت وفاتهُ في الثاني والعشرين من شهر مايو (ايار) واحتفلت الجمهورية الفرنسوية بدفنهِ احتفال ملك عظيم ولا بدع فانهُ من اعظم ملوك الافكار

(وصية فيكتور هوكو ومنها يظهر معتقدهُ الديني) ان يُعطى خمسون الف فرنك من تركتهِ للفقراء وان يحمل في نعشهم وان لا يصلّى عليهِ في معبد خاصّ بمذهب من المذاهب لانهُ يعتقد بخلاصة الاديان (بوجود اله خالق كامل الصفات وبخلود النفس فهو تابع لها كلها لا فرق بينها. وبلغت تركتهُ على ما ورد في الصحف الباريزية خمسة ملايين من الفرنكات

حد النظارات الفلكية

لا يخفى اننا نرى الاجسام بما يدخل عيوننا من نورها او من النور المنعكس عنها. وبؤبوءة العين ضيق لا يدخلهُ الا قلم دقيق من النور فاذا كانت الاجسام بعيدة جدًّا لم يعد النور الداخل منها كافيًا لرسم صوَر واضحة على شبكة العين فتغيب تلك الاجسام عن النظر او لا ترى رؤية واضحة. ولكن الانسان لم يقف عند هذا الحد الطبيعي بل اهتدى بعقلهِ الثاقب الى جمع قلم غليظ من النور في بؤرة ضيقة ونظر اليهِ بزجاجات تكبر خطوطهُ وتكبر في العين صورتهُ وصنع آلة جامعة لهذين الامرين سمّاها بالتلسكوب وهي التي نسميها احيانًا بالنظارة الفلكية فاستوضح بها ما خفي من الاجرام ورأى ما لا يرى من الكواكب. وقد بسطنا الكلام على هذه الآلة وانواعها